خليفة بن خياط ومنهجه في كتابة التاريخ

بقلم الاستاذ : هاني السباعي

قال قائل: *كيف تضع تاريخ خليفة بن خياط كمصدر من مصادر السيرة النبوية قبل تاريخ الإسلام للذهبي والكامل لابن الأثير رغم أن ابن خياط قد تكلم فيه بعض علماء الجرح والتعديل :*

حيث غمزه ابن المديني.
وقال عنه: (ابن خياط شجر يحمل الحديث)!!
وضعفه العقيلي.
ولم يحدث عنه أبوحاتم الرازي.
ولم يوثقه أبوزرعة الرازي.

ورغم ذلك تعتمد كتابه كمصدر من مصادر السيرة والرجل بهذا الضعف؟!!

ولمناقشة هذا الإعتراض والرد عليه عبر النقاط التالية:

أولاً: التعريف بابن خياط وأقوال العلماء فيه تجريحاً وتعديلاً.
ثانياً: منهج ابن خياط في كتابة التاريخ.
ثالثاً: صفوة القول.

- **أولاً: التعريف بابن خياط وأقوال العلماء فيه تجريحاً وتعديلاً:**

يعرفه لنا الحافظ محمد بن طاهر بن القيسراني المتوفى (507هـ) في كتابه (تذكرة الحفاظ): "الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري المعروف بشباب محدث نسابة اخباري علامة صنف التاريخ والطبقات وسمع ابن عيينة ويزيد زُريع وغندراً وطبقتهم وعنه البخاري وبقي بن مخلد وعبدان وأبويعلى وطائفة قال ابن عدي مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة. قال مطين مات سنة أربعين ومائتين رحمه الله تعالى يقع لنا حديثه عالياً من مسند أبي يعلى الموصلي".

ويقول عنه الحافظ السيوطي المتوفى (911هـ) : "خليفة بن خياط بن خليفة بن خياط العصفري أبوعمرو البصري الحافظ المعروف بشباب كان عالماً بالنسب والسير وأيام الناس روى عن ابن علية وبشر بن المفضل وأبي داود الطيالسي وابن عيينة وابن مهدي ويزيد بن زريع وعنه البخاري وأبو يعلى وبقي بن مخلد وحرب بن إسماعيل الكرماني والدارمي وعبد الله بن أحمد بن حنبل".

وقال عنه الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي المتوفى (354هـ): "خليفة بن خياط أبو عمر العصفري من أهل البصرة يقال له شباب يروي عن ابن عيينة والبصريين حدثنا عنه الحسين بن سفيان وغيره وكان عالماً متقناً بأيام الناس وأنسابهم".

ويقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى (748هـ) في (ميزان الإعتدال): "خليفة بن خياط العصفري الحافظ شباب صاحب التاريخ روى عن جعفر بن سليمان ومعتمر بن سليمان ويزيد بن زريع وخلق وعنه البخاري وأبويعلى وعبدان وخلق".

لكن لماذا ضعفه بعض العلماء رغم ثناء جماهير علماء الأمصار عليه؟!

أقول: لقد اختلط على بعض المعاصرين الأمر وسبب ذلك أنهم يتعاملون مع ابن خياط من خلال من منظور واحد فخليفة بن خياط محدث ومؤرخ في وقت واحد فمن نظر إلى قول بعض العلماء فيه من الناحية الحديثية ومن حيث الرواية بشروطها وضوابطها الصارمة يضعفونه.. ومن ينظر إليه كمؤرخ علامة نسابة فهو الإمام المقدم في هذا الفن ومن ثم يتساهلون في بعض مروياته التاريخية.. ورغم ذلك فإنه محدث ثقة وليس كما يتوهم البعض أنه ضعيف سوف نثبت ذلك من خلال أقوال صيارفة الإسلام في علم التعديل والتجريح..

وسنتتبع أصل هذه القضية وكيف وصل إلينا الأمر أن خليفة بن خياط ضعيف الرواية على النحو التالي:

لقد تمسك البعض بما ذكره الحافظ أبو جعفر محمد بن عمر العقيلي المتوفى (322هـ) حيث قال في كتابه

الضــعفاء: "خليفة بن خيــاط البصـــري يعـــرف بشـــباب العصـفري بصـري حـدثني زكريا بن يحـيى الساجي قـال حــدثنا الحســين بن يحــيى الأزدي قــال ســمعت علي بن المــديني يقــول في دار عبد الــرحمن بن عمر بن جبلــة: وشباب بن خياط شجر يحمل الحديث".

ويشــرح لنا الحافظ أبوالوليد البـاجي المتـوفى (474هــ) أصل المشكلة بتفصيل أكثر في كتابه (التعديل والتجريح): "خليفة بن خيـاط يقـال له شـباب أبو عمـرو العصـفري البصـري أخـرج البخـاري في الجنـائز والـدعوات عنه عن معتمر قـــال عبد الـــرحمن بن أبي حـــاتم انتهى أبوزرعة الـرازي إلى أحـاديث كـان أخرجها في فوائـده عن شباب العصـفري فلم يقرأها علينا فضـربنا عليها وتـركت الرواية عنه قال أبوحاتم الرازي لا أحدث عن شباب هـذا هو غـير قوي. كتبت من مسنده أحاديث ثلاثة عن أبي الوليد فأتيت أبا الوليد فســألته عنها فأنكرهــا. فقلت كتبتها من كتــاب شــباب العصــفري فعرفه وســكن غضــبه وهــذا على نحو ماقالوا وإنما يقول البخـاري عنه في أكـثر ما خـرج وقـال خليفة بن خيـاط وقد قـال حـدثني خليفة بن خيـاط وقرنه بـان أبي الأسـود جميعـاً عن معتمر في بـاب مرجع النـبي صـــلى الله عليه وســـلم من الأحـــزاب ومخرجه إلى بـــني قريظة وقال في تفسيره لسورة البقـرة وقـال لي خليفة بن خياط عن يزيد بن زريع وقرنه بمسلم عن هشام وقال في الردة وحـدثني خليفة بن خيـاط وقرنه بمحمد بن أبي بكر على هذا رأيت أمـره إذا أفـرده قـال وقـال لي خليفة وإذا قرنه قال وحدثني خليفة" .

هكـذا اسـتبان لنا لمـاذا غمز بعض العلمـاء ابن خيـاط؟! فالحافظ أبو الوليد الباجي ذكر قول أبي حاتم الـرازي: (لا أحـدث عن شـباب هـذا هو غـير قـوي كتبت من مسـنده أحـاديث ثلاثــة...إلخ) لكن لما عرضــها على الحافظ أبي الوليد أنكرها!!

لكن أبا حاتم تـدارك الأمر وقـال: كتبتها من كتـاب شـباب العصفري.. بمعنى أنه إذا صـرح خليفة بن خيـاط فهو ثبت ثقة أما إذا لم يصرح، وقال الراوي: قال خليفة بن خياط.. فهنا لايقبلون روايته إذا انفرد ولم يصرح بالتحديث..

وحـاول الحافظ البـاجي أن يـبرر لمـاذا روى عنه البخـاري في صــحيحه؟! بمعــنى أوضح إذا كــان خليفة بن خيــاط ضــعيفاً فلمــاذا روى البخــاري عنه في صــحيحه؟ بل إن

خليفة بن خياط من شيوخ البخاري.. وقد قيل إن البخاري روى عنه مقروناً بغيره...

ولنترك الحافظ شمس الدين الذهبي ليتكلم عن الخلفية العلمية لابن خياط ولنعرف رأيه في هذه القضية من خلال ترجمته في كتابه الماتع (سير أعلام النبلاء): "ابن خليفة بن خياط الإمام الحافظ العلامة الإخباري، أبوعمرو العصفري البصري، ويُلقب بشَبَاب، صاحب (التاريخ)، وكتاب (الطبقات)، وغير ذلك. سمع أباه، ويزيدَ بنَ زريع، وزيادَ بنَ عبدالله البكائي، وسفيان بن عيينة، وعبد الأعلى بن عبد الأعلى، ومحمدَ بنَ جعفر غُنْدَراً، وإسماعيل بن عُلية، ومحمدَ بنَ أبي عدي، ومُعْتَمر بن سليمان، ومحمد بن سَوَاء، وخالد بن الحارث، ويحيى القطّان، وابنَ مهدي، وأميةَ بنَ خالد، وحاتم بن مسلم، وهشام الكلبي، وعلي بن محمد المدائني، وخلقاً كثيراً".

ونجد دقة الذهبي في استدراكه لشيخه الحافظ العلامة أبي الحجاج المزي المتوفى (742هـ) في مسألة فنية بحتة وهو بصدد الكلام عن شيوخ خليفة بن خياط حيث يقول: "ذكر شيخنا في (تهذيب الكمال) أنه روى أيضاً عن حماد بن سلمة فهذا وهم بيّن، فإنّ الرجل لم يلحق أيضاً السماع من حماد بن زيد، وأراه رآه".

ولمن أراد أن يعرف قدر ابن خياط وثقة العلماء فيه وتوثيقهم له يقول عنه صاحب سير النبلاء: "حدث عنه: البخاري بسبعة أحاديث أو أزْيَد في صحيحه، وبقيُّ بنُ مَخْلد، وحرب الكرماني، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وأبوبكر بن أبي عاصم، وعمر بن أحمد الأهوازي، وموسى بن زكريا التُستري، وعَبْدَان الجواليقي، وزكريا السّاجي، وخلقٌ. وكان صدوقاً نسّابةً، عالماً بالسير والأيام والرجال. وثقه بعضهم. وقال ابن عدي: هو صدوق من متيقظي الرواة. قلتُ (الذهبي): ليّنَهُ بعضُهم بلا حجة. قال: مُطَيَّن وغيرُه: مات سنة أربعين ومائتين".

انظر إلى قول الذهبي: (لينه بعضهم بلاحجة)..
معنى ذلك أن الذهبي لا يثق في الرواية المذكورة عن أبي حاتم الرازي التي ذكرتها آنفاً.

وينبري ابن حجر العسقلاني المتوفى في (852هـ) مدافعاً عن ابن خياط مثلما فعل الذهبي ومن سبقه حيث

يذكر في سياق الرد على في وجود أسماء مطعـون عليها في صحيح البخاري فيقول في هـدي السـاري: "خليفة بن خيـاط العصـفري أبو عمـرو لقبه شـباب أحد الحفـاظ المصنفين من شيوخ البخـاري. قـال ابن عـدي له حـديث كثـير وتصـانيف، وهو مسـتقيم الحـديث صـدوق من المتيقظين وقال ابن حبان كان متقناً عالماً بأيـام النـاس، وقـال العقيلي غمـزه ابن المـديني وتعقب ذلك ابن عـدي بأنه من رواية الكديمي عن ابن المديني والكديمي ضعيف لكن روى الحسن بن يحـيى عن علي بن المـديني نحو ذلـك، وقـال ابن أبي حـاتم ما رضي أبوزرعة يقـرأ علينا حديثه، وقال أبو حاتم لا أحـدث عنـه، هو غـير قـوي كتبت من مسنده ثلاثة أحـاديث عن أبي الوليد ثم أتيت أبا الوليد فسـألته عنها فأنكرها وقـال ما هـذه من حـديثي فقلت كتبتها من كتاب شـباب العصـفري فعرفه وسـكن غضـبه.. قلت (ابن حجر): هـذه حكاية محتملة وجميع ما أخرجه له البخاري أن قرنه بغيره قـال: حـدثنا خليفة وذلك في ثلاث أحـاديث وإن أفـرده علق ذلك فقـال: قـال خليفة قاله أبو الوليد البـاجي ومع ذلك فليس فيها شئ من افـراده والله أعلم".

أقـول: انظر إلى قـول ابن حجر (هـذه حكاية محتملـة) معـــنى ذلك أن ابن حجر لا يعتد بها ويوهنا وأنه لايقبلها حجة في قدح ابن خياط وتجريحه.

وانظر إلى اسـتدراكه لأبي الوليد البـاجي في قوله (ومع ذلك فليس فيها شئ من افـراده والله أعلم) معـنى ذلك أنه سواء قرن روايته البخاري أم أفرده فخليفة ابن خيـاط ثقة ثبت وصدوق.

- **ثانياً: منهج ابن خياط في كتابة التاريخ:**

خليفة بن خياط من المؤرخين الكبار في التاريخ الإسلامي ومن أعظم رواد مدرسة البصـرة. ألف كتابه المـاتع (التـاريخ) المشـهور باسم (تـاريخ خليفة بن خيـاط)، وله عدة كتب منها (طبقات القراء) (تاريخ الزمـنى والعرجـان والمرضى والعميـان). ولم يبق من هـذه الكتب إلا كتابه (التاريخ) و كتاب طبقات القراء.

نسـتطيع أن نقسم المصـادر الـتي اسـتقى منها معلوماته إلى:

مصادره في تدوين السيرة النبوية:

معظم معلومــات خليفة بن خيــاط أخــذها عن محمد بن إســحاق (ت151هــ) ونلاحظ وجــود اسم وهب بن جرير الــذي نقل عنه ابن سـعد في طبقاته الكـبرى، وكــذا أبي معشر السندي. وقد بدأ حوليـات كتابه بالسـنة الأولى من الهجرة النبوية وانتهى إلى وفـاة الرسـول صـلى الله عليه وســلم مع ذكر عماله وكتّابه ثم شــرع في ذكر الخلفــاء الراشدين وبقية دول الإسلام إلى أحداث 232هـ.

أما في الأنساب:

فقد أخذ عن هشام بن محمد الكلبي، أبي اليقظان سحيم النسابة، ونجد اسم أبي عبيدة معمر بن المثنى الــذي أخذ عنه أخبار الخـوارج. وقد أخذ عن يحـيى بن محمد الكعـبي ويزيد بن زريع وعبد الله بن المغــيرة والوليد بن هشــام وعبد الله بن قعنب وخلق كثير يبلغون أكــثر من 103 من الإخباريين والرواة والمحدثين.

أما عن طريقته في السرد التاريخي:

يهتم بن خيــاط بالإســناد بصـفته كمحـدث ولا سـيما فيما يتعلق بالجز الخـاص بالسـيرة النبوية والأحـداث الخلافيـة، واتبع طريقة الحوليــات في التــاريخ، تلكم الطريقة الــتي ســار عليها الطــبري وكل ومعظم من كتب في تــاريخ الإســلام. ويهتم ابن خيــاط بواقعــات وأحــداث تاريخية لا نجدها في كتاب الطبري مثل اهتمامه بذكر أسماء شـهداء الصحابة في الغزوات والسـرايا. كما أنه أعطانا معلومـات هامة عن أسماء العمال والولاة في عهـود الخلفـاء وقـدم لنا قوائم بأسماء القضاة وكبـار رجـال الدولة وبيت المـال والخــراج ورجــال الشــرطة ومن ثم تعتــبر دراسة هامة للنظام الإداري والمالي في الإسلام.

وقد ابتــدأ ابن خيــاط كتابه (التــاريخ) بإعطائنا نبــذة عن معنى التاريخ ومـتى بـدأ النـاس يؤرخـون حـتى وصل إلى التاريخ الهجـري ومـتى وكيف حـدث ذلك ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما ذكره في مقدمة كتابه..

وهناك كتـاب مطبـوع بتحقيق د.أكـرم ضـيا العمـري باسم (تاريخ خليفة بن خياط)..

- **صفوة القول :**

لقد قدمتُ الحافظ خليفة بن خياط على غيره لأن كتاب أقدم كتاب في تاريخ الإسلام مرتب على الحوليات ليس هذا فحسب بل لأنه محدث ثقة صدوق بشهادة علماء التعديل والتجريح كما ذكرت آنفاً.

أستطيع أن أؤكد أن شيخ المؤرخين الطبري أخذ عن ابن خياط كثيراً من المعلومات واحتذى طريقته في التأليف المرتب على الحوليات.

قد استبان لنا براءة ابن خياط من الرواية المنسوبة إليه عن طريق الكديمي الذي ضعفه الحافظ ابن عدي بل إن الحافظ ابن عدي هو أول من شكك في رواية الكديمي ودافع بقوة عن خليفة بن خياط ومن ثم سار على نفس الدرب في الدفاع عن ابن خياط علماء كثير كأبي الوليد الباجي والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي وغيرهم من علماء الإسلام.
يعتبر كتاب (تاريخ خليفة بن خياط) وخاصة فيما يتعلق بقسم السيرة النبوية مصدراً مكملاً لبقية مصادر السيرة النبوية حيث اهتم بأحداث لم يذكرها غيره.

لقد ظلم خليفة بن خياط حياً وميتاً فقد ابتلي بالمعتزلة الذين أتعبوه كثيراً وناصبوه العداء في عصر الخليفة المأمون وحسده أقرانه لسعة علمه وثقة الناس به.
وظلم ميتاً حيث لم يأخذ مكان الصدارة في التاريخ الإسلامي ولم يهتم به الباحثون الإهتمام اللائق كمحدث ومؤرخ من كبار مؤرخي الإسلام.

هاني السباعي
لندن في 11 يونيو 2001



تم تنـزيل هذه المادة من
منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info